إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى ـ العدد الثاني ـ صيف ١٣٩٠ش / حزيران ٢٠١١م

التحليل والنقد لشخصية وأدب إلياس فرحات، شاعر العرب في المهجر

دكتر حسن مجيدى*
إنسية سكاكى**

الملخص

انتقل مجموعات كبيرة من الناس للأراضى العربية، ولاسيما لبنان وسوريا، إلى الأمريكتين الشمالية والجنوبية فى أواخر القرن التاسع عشر وخلال العشرين، حيث استقرّوا فى الأمريكا، وكندا، والبرازيل، والأرجنتين، والمكسيک.

كان هذه الهجرة فى كثير من الأحيان نتيجة للتخلص من المشاكل الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية التى كانت قد سيطرت على المجتمع العربى. يتعرّض هذا المقال من بين هؤلاء المهاجرين، لإلياس فرحات، الشاعر اللبنانى الذى هاجر إلى البرازيل. يهيمن نفسية شعراء العرب القدماء بصورة واضحة على قوالب أشعار فرحات هيمنة لايمكن لفرحات التخلص منه نظراً لتشابه ظروف معيشته بهمتعكس قصص فرحات الشعرىة مختلف جوانب حياته وتجربته الشخصية على نطاق واسع.

الكلمات الدليلية: لبنان، إلياس فرحات، الهجرة، الأدب القديم، القصص الشعرية.

*.عضو هيئة التدريس بجامعة تربيت معلم فى سبزوار – أستاذ مساعد.
**. خرّيجة جامعة تربيت معلم فى سبزوار.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى.

Majidi.dr@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٤/٢٧هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٥/١٢هـ. ش

المقدمة

يعتبر إلياس فرحات شاعرا لبنانيّا مهجريّا ولد فی قرية كفر شيما، وتلقّى دروسه الأولى فی دير القرقفة القائم على رأس رابية تشرف على تلک القرية، وفی سنّ العاشرة ترک المدرسة وراح يتدرّب على المهن اليدوية، علّه يجد فيها طريق النجاح فی الحياة. وفی سنة ١٩١٠م هاجر إلى البرازيل، وانضمّ إلى أخويه وديع، وسعيد فی ولاية ميناس، ثمّ انتقل إلى سان باولو وزاول عدّة أعمال من تنضيد للحروف المطبعية، إلى تربية المواشی والدواجن، إلى جباية اشتراكات الصحف، إلى غير ذلک مما لم يحل دون انصرافه، فی أوقات الفراغ، إلى المطالعة والتمكن من قواعد الكتابة والنظم وقد اشترک مع توفيق ضعون فی إصدار مجلة الجديد ثمّ فی تحرير جريدة (المقرعة) التی أنشأها سليم لبكی.

وفی سنة ١٩٢٠م اقترن بجوليا بشارة جبران من بشرّای. وفی سنة ١٩٤٨م فاز بجائزة الشعر من مجمع فؤاد الأول. وقد منحته الحكومة السورية وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. فی سنة ١٩٥٩م قدم سورية بدعوة من حكومتها، وأقام فيها وفی لبنان مدة كانت من أطيب أيامه. ثمّ عاد إلى البرازيل ليلقى فيها ربه سنة ١٩٧٧م. (الفاخوری، ١٣٨٠ش: ٦٥٠)

شخصيته

إلياس فرحات من العصاميين الذين ذلّلوا الصّعاب بعنادهم، وقد عاند الحياة فاقتنص الرزق من بين أنيابها، وتدرج فی العلم وحيداً لايعتمد إلا على ذكاء فطری عجيب إلى أنّ ملک ناصية اللغة، وتدرج أيضا فی النظم معتمداً على فطرته الشعرية وأذنه الموسيقية إلى أن أصبح من أربابه. (المصدر نفسه: ٦٥١)

حياته فی البرازيل

وصل إلياس إلى البرازيل فی السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٠م وإنما

أصبح همّه الأول أن ينشر أفكاره وآراءه على الناس بشكل واسع، وهذا ما جعله يميل إلى الاهتمام بالصحافة وإلى العيش فى سان باولو، عاصمة العربً فى البرازيل، حيث الأدباء، والصحف، والمجلّات، والندوات... وفى هذه المدينه اشترک مع ضعون فى إصدار مجلته (الجديد)، وکان باکورة ما نشر له فى الجديد موشح (يا جماعة) وهى إلى حبيبة غادرها فى الأفق الجميل، ثمّ موشح آخر بعنوان (عجل الذهب) يبين فيه قسوة أهل الفتاة عليها من أجل عريس موسر وصفه بالذئب الكاسر. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ٩٣)

لقد شقى فرحات وتعذب کثيراً فى سان باولو، ونام ليالى دون عشاء، ومع ذلک لم يکن يرغب فى البعد عنها لما فيها من الأدباء والروح الأدبية.

تزوج فرحات، ولکن حياة کفاحه ومشقته لم تتوقف بل زادت وتضاعف العبء، فأخذ يربى الخنازير والحملان ... کل هذا، دون أن ينصرف عن قول الشعر. (فرحات، قال الراوى، لاتا: ٢١- ٢٥)

لم تستقر حياة فرحات فى مکان واحد، فهو يملک روحاً لا تعرف الاستقرار أو الهدوء فتراه ينتقل بعد زواجه أيضاً، من مدينة إلى أخرى ومن ولاية إلى ولاية، ومن عمل إلى عمل.

واستمرت حياة فرحات على هذا النحو، معاناة ومشاق من أجل العيش وبشکل خاص قضية فلسطين، حتى يومنا الحاضر.

فى سنة ١٩٥٣م طبع له (موسى کريم) صاحب مجلة الشرق فى سان باولو ديوان (أحلام الراعى)، ووزّعه على مشترکين مجانا... وهو عبارة عن ست قصائد فيها روح القصة، أو ستة أحلام تدور حوادثها بينه وبين نعاجه وکلبه، فيها الحکم والفلسفة والمثاليات ووجهة نظر فى الإنسان وأخلاقه وصفاته. (العودات، لاتا: ٧٢٠)

آثاره الأدبية

١. ديوان فرحات. ٢. الرباعيات أو رباعيات فرحات. ٣. أحلام الراعى. ٤. عودة

الغائب. ٥. فواكه رجعية. ۶. قال الراوی. (الفاخوری، ١٣٨٠ش: ۶٥١)

اتجاهات إلياس فرحات فی الشعر القديم

مراحله الشعرية

نستطيع أن نتسلسل معه تاريخياً فی محاولة لتقسيم شعره الوطنی، والسياسی إلی ثلاث مراحل:

١. المرحلة الأولی تنتهی بنكبة فلسطين سنة ١٩۴٨م وذكر فلسطين فيها قليل إلا فی الفترة الأخيرة، وفيها فخر شديد بالعرب وتهديد للغرب.

٢. المرحلة الثانية تنتهی سنة ١٩٥۶م وتمتاز بالمرارة والألم وفيها التعرض للزعماء العرب وتقريعهم والتركيز علی قضية فلسطين.

٣. المرحلة الثالثة حتی سنة ١٩۶٣م تاريخ آخر قصيدة وصلت إلينا. ويبدو فيها الشیء الكثير من التفاؤل والأمل.

سنلاحظ أن الشعر السياسی، والوطنی الذی نظمه فرحات بعد النكبة، يختلف إلی حد كبير عما نظم قبلها، إذ أصبح يميل إلی الشدة، والعنف، والخطابة، واللوم.

أما المرحلة الثالثة فهی تمتد ما بين سنة ١٩٥۶م إلی سنة ١٩۶٢م، وهذا الأخير تاريخ آخر قصيدة نظمها فرحات ووصلت إلينا... وكل القصائد التی نشرت فيما بين هذين التاريخين نشرت فی ديوان واحد صدر أخيراً سنة ١٩۶٧م فی مصر تحت عنوان (مطلع الشتاء).

والحقيقة أن هذا الديوان يمتاز بالتفاؤل والأمل، بخلاف شعره الذی نظمه علی أثر النكبة. (بدوان قطامی، ١١١٩م: ١٣٣- ١٥۴)

تأثره من الأدب القديم

إنّ حياة فرحات وثقافته لتذكرنی بالشعراء العرب القدماء الذين كانوا ينشأون فی المدن، ثمّ يخرجون إلی البادية لتلقی اللغة وأساليب البلاغة والبيان، مشافهة من السنة

الأعراب. وذلک حتى تستقيم ألسنتهم وتخلص من اللحن، وتقوى أساليبهم، تجزل ألفاظهم شعر الشعراء الذين قضوا فترة من حياتهم فى البادية. وقد ساعده فى حفظ الشعر الذى کان يقرؤه تلک الذاکرة القوية التى وهبها الله له... وهکذا استطاع أن يتجنب الأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية، ويفهم القواعد کلها بالسليقة، معتمداً على أذنه التى تلقت آلاف الأبيات. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ١١٢)

تأثره من المتنبى

أغرم فرحات بالمتنبى وأقبل عليه بشغف، وسلمه زمام نفسه، وجعله رائده وأستاذه وقدوته. وهذا يبدو فى کثير من الألفاظ القديمة التى نجدها عنده، وفى ذکر أسماء الأسلحة وأدوات القتال التى نجدها فى شعر المتنبى، وخاصة سيفياته، کما يبدو فى الحکم والرثاء والمبالغات والتضمينات، وحتى فى الأوزان والقوافى... وفرحات لايحاول إنکار ذلک فهو يقر بفضل المتنبى، ليس عليه فقط، بل على کل شاعر:

له السلطة العليا على کل شاعر فلايدع التجديد بالشعر ناظم

(فرحات، الصيف، ١٩٥۴م: ١۴٢)

کما يعتبره أشعر الشعراء:

يا أبا الطيب يا أشعر من تحت السماء يا أمير الأمس واليوم وفخر الشعراء

(فرحات، مطلع الشتاء، ١٩۶٧م: ٩۶)

لايطلب المرء فهماً فى الجميع ولا يبغى من البدو ما يبغى من الحضر

(فرحات، الرباعيات،١٩۵۴م: ٧۴)

من حکمة المتنبى:

وإذا خفيت على الغبى فعاذر أن لاترانى مقلة عمياء

(المتنبى، ١٨٩٨م: ٩٣)

وقوله أيضاً:

لسنا نجادل عمياً يطلبون على ضوء النهار دليلا والنهار جلى

(فرحات، الصيف، ١٩۵۴م: ۵٨)

من حكمة المتنبى:

وليـــس يصح فى الأفهام شـــیء   إذا احتـــاج النهـــار إلـــى دليـــل

(المتنبى، ۱۸۹۸م: ۲۶۱)

ومن قصائده، (المتنبى)، التى نظمها بمناسبة مرور ألف عام على وفاته، يقول منها:

مجـــرة مجـــد رصعتهـــا المراقـــم   لكوكـــب ســـعد أطلعتـــه العظائـــم

تمشـــوا علينا والرضى يستر الردى   «كما تتمشـــى فى الصعيد الأراقم»

إذا فتـــروا أذكـــى الحماســـة هاتف   «على قدر أهل العزم تأتى العزائم»

(فرحات، الصيف، ۱۹۵۴م: ۱۴۲)

وقصيدته (سان باولو) التى يقول منها:

أتهجرهـــا وتبخـــل بالســـلام   وكنت تزور حتـــى فى المنام

وأنـــزل كل يـــوم دار قـــوم   ودارى مـــرة فـــى كل عـــام

(*المصدر نفسه*: ۱۷۷)

ففى القصيدتين الأولى والثانية، يظهر أثر المتنبى واضحاً، وخاصة جو قصيدته التى نظها سنة ۳۴۳ق يمدح فيها سيف الدولة، ويذكر بناء ثغر الحدث:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم و تأتى على قدر الكرام الكرائم

(المتنبى، ۱۸۹۸م: ۲۹۰)

«أما سمة البدواة التى تظهر فى شعره، فهذه أيضاً تعود إلى المتنبى وأثر البادية فيه فقد كان لحياته الأولى فى البادية وبين الأعراب، ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة فى موضعها من كلام العرب، أثر راسخ فى موهبته وطبعه، حتى إن مياسم البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده.» (زكى المحاسنى، لاتا: ۴۱)

تشابهه وتأثره من المعرّى

هناك شاعر آخر تأثر به فرحات، إلى حد ما، ولكن تأثره بأفكار هذا الشاعر ونهجه أكثر من تأثره بألفاظه وأساليبه. وهذا الشاعر هو أبوالعلاء المعرى... والحقيقة أن هناك

تشابهاً كبيراً بين شخصية المعرىّ وصفاته، وبين شخصية فرحات وصفاته، بالإضافة إلى تشابه ظروفهما... ومن الصفات التى نجدها عند المعرىّ ونجد مثلها عند فرحات: «الذاكرة الجبارة، قوة التحليل العقلى، الجرأة، الأنفة.» (فروخ، ۱۹۶۰م: ۲۷-۲۸)

ولابد أنه تأثر بتلک اللمسات الخفيفة التى مسّ بها المعرى أخلاق الناس فى زمانه من مثل قوله:

فظُنَّ بسائر الإخوان شرًّا ولاتأمن على سر فوادا
فلو خبرتهم الجوزاء خبرى لما طلعت مخافة أن تكادا
تجنبت الأنام فلا أواخى وذدت عن العدو فما أعادى
فأى الناس أجعله صديقاً وأى الأرض أسلكه ارتيادا؟
ويظهر لى مودته مقالا ويبغضنى ضميراً واعتقادا

(المعرى، ۱۹۶۱م: ۱۹۷-۱۹۸)

كما تأثر إلى حد ما بتشاؤمه نظرته السوداء إلى الحياة، فبرز هذا كله، بتأثير ظروفه وحياته فى المهجر، وعلاقاته بالناس بشكل واسع فى الرباعيات، ذلک الديوان الذى يعد ثمرة لطموح الشباب أنضجتها مصاعب العيش وقسوة الحياة. (بدوان قطامى، ۱۱۱۹م: ۱۱۹)

هناک قصيدته التى نظمها سنة۱۹۴۴م بمناسبة مرور ألف عام على ميلاد المعرى، بعنوان (المعرى) تبين لنا اطلاع فرحات على لزوميات المعرى وإنتاجه الشعرى.

ألا أيها الأعمى البصير الذى رأى بفطنته قلب الورى المتقلبا
ولم ير فى الأديان إلا حبائلا يصيدبها الداعى إليها التكسبا
فيا من رأى فى الدين قيداً لعقله فأعمل فيه مبرد النقد مغضبا
أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ديانتكم مكر وأحلامكم هبا

(فرحات، الصيف، ۱۹۵۴م: ۱۸۸)

كما أن أثر المعرى ووجهة نظره فى البشر، تبدو بشكل واضح عند فرحات فى ديوان (أحلام الراعى) الذى صدر سنة ۱۹۵۳م كما تبدو آواؤه فى الأديان، ورجالها، والفروق

الدينية والمذهبية، وتناول الأمور تناولا عقلياً... فى كل شعره ودواوينه الأخرى... لنستمع إلى هذه الأبيات للمعرى من لزومياته، حيث نرى أصداءها أو نراها بشكل موسع فى قصيدة سلام الغاب من ديوان (أحلام الراعى)...

يقول المرعى فى محاورة بين الضأن وابن آدم:

لو حاورتك الضأن قال حصيفها　　الذئب يظلم وابن آدم أظلم
أظفارك استعلت إلى أظفاره　　بأسا، وتلك وقت وهذى تقلم

(المعرى، ١٩٦١م، ج٢: ٤٠٩)

ومثل هذا فعل فرحات فى (سلام الغاب) حيث أدار حوارا بينه وبين إحدى نعاجه بعد أن قتل الذئب بمساعدة كلبه... وعلى لسان هذه النعجة جاء بمقارنة بين الإنسان والذئب كمقارنة المعرى، وخرج منها بتفضيل الذئب على الإنسان، لأن الذئب لا يقتل إلا وهو جائع على حين أن الإنسان يقتل جائعاً ومتخماً... يقول على لسان النعجة:

قالت لماذا قتلت جائع　　لم يبغ منا سوى الطعام؟
ولو رجعنا إلى الطبائع　　فالوحش خير من الأنام
تتهم الذئاب بالحملان　　وأنت أضراها وأقسى عملا
الذئب لايسطو إذا لم يجع　　وأنت تسطو جائعاً ومتخما

(فرحات، أحلام الراعى، ١٩٦٢م: ٥٣-٥٧)

والحقيقة أنه كان للثقافة اللغوية والأدبية القديمة التى عبرّها فرحات، أثر كبير فى شعره من حيث الأوزان والقوافى والصور والعبارات والأساليب والألفاظ، فما رأيناه يخرج- فى أغلب شعره- على الأوزان والقوافى العربية القديمة، كما أن الكثير من صوره تبدو عليها سمات البداوة والبيئة العربية القديمة.

ولا ننسى فى هذا المجال أن الذى ساعد على ذلک عند فرحات، تلک الذاكرة القوية التى كانت تختزن كل ما تقرأ أو تسمع. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ١٢٤)

قصصه الشعرية

القصة الشعرية

القصة شكل من أشكال التعبير الأدبی، تتجلی فيها- إلی حدّ كبير- عواطف صاحبها، ونوازعه، وآراؤه، واتجاهاته... وهی تقوم علی ثلاثة عناصر- فی الغالب- هی العرض والعقدة والحل، يسلم كل جزء فيها الحوادث إلی الجزاء الذی يليه بشكل طبيعی متسلسل بعيد عن الحشو والاستطراد أو التدخل. (*المصدر نفسه*: ۲۴۶)

الحوادث تسير بشكل طبيعی منطقی، يعتمد اللاحق منها علی السابق اعتماداً متناسباً بعيداً عن الافتعال، دون إسهاب أو إيجاز أو حذف. «مهمة القاص تنصر فی نقل القارئ إلی حياة القصة، بحيث يتيح له الاندماج التام فی حوادثها، ويحمله علی الاعتراف بصدق التفاعل الذی يحدث بين الشخصيات والحوادث.» (نجم، ۱۹۶۳م: ۱۰)

أما القصة الشعرية، فهی فن أو نوع من الأنواع الشعرية التی يعدّها بعض النقاد فناً جديداً فی الشعر العربی اقتبسناه عن الغرب، مع أن الدكتور مندوراً ينكر وجود هذا النوع من الشعر عند الغربيين والحقيقة أن القصة الشعرية بمفمومها البسيط، نجدها فی تراثنا الشعری منذ العصر الجاهلی حتی عصرنا الحاضر... نجده عند امرئ القيس والمنخل اليشكری والنابغة الذبيانی والحطيئة وعمر بن أبی ربيعة وأبی نواس... وغيرهم أما القصة الشعرية بمفهومها الحديث القائم علی ما تقدّم من مفهوم القصة، فهذا فن جديد لانجده إلا عند بعض شعرائنا المحدثين. (بدوان قطامی، ۱۱۱۹م: ۲۴۷)

وإذا كان الشعر تصويراً لما ينعكس علی نفس الشاعر من جوانب الحياة، والقصة تصويراً لقطاعات من الحياة نفسها، فإن القصة الشعرية تجمع بين هاتين الصورتين، وتجعلنا نحيا التجربة النفسية الواحدة فی نطاق أوسع وأفق أرحب (مريدن، ۱۹۸۴م: ۱۰)... وتوسل القصة بالشعر لابدّ أن يجعلها أكثر إيجازاً وأقوی إيماء، وأشد وقعاً، وأعمق أثراً فی النفس.

ولنر، بعد ما تقدم، ما هی أنواع القصة الشعرية عند فرحات، ومدی توفر العناصر الفنية فيها...

فی دیوانه الأول المطبوع سنة ۱۹۳۲م باسم دیوان فرحات نجد أربع قصص بأسماء: الشهیدان– احتجاج السعادین – الراهبة – کل حر فی دولة الظلم جان... وتوخیاً للدقة، لا بد لنا من القول إنّها ثلاث أقاصیص وقصة واحدة، الأولی منها أقصوصة وجدانیة مأساویة، والثانیة رمزیة اجتماعیة وطنیة، والثالثة وجدانیة اجتماعیة... أما الرابعة فهی القصة، وموضوعها وجدانی وطنی اجتماعی...

قصة (الشهيدان)

تدور الأقصوصة الأولی (الشهیدان) حول عروسین ناما فی لیلة باردة، بعد أن وضعا الفحم المشتعل فی غرفة نومهما لکسر حدة البرد، فاصبحا جثتین هامدتین... وقد بدأ الشاعر القصیدة بموعظة حول الموت والحب ثمّ انتقل إلی نقل حوادث أقصوصة، کما جاءت فی إحدی الصحف، مبیناً أثر وقع الخبر علی عیون المستمعین، ثمّ ختمها ببعض العظات... وهذه المواعظ فی أول الأقصوصة وفی خاتمتها تعد حشواً أفقدت الأقصوصة الکثیر من فنیتها، وألصقت بها أجزاء لا تمت إلیها بصلة...

قصة (احتجاج السعادين)

أما الثانیة (احتجاج السعادین) فمضمونها یدور حول نظریة دارون التطوریة، ووقع هذه النظریة لدی القرود، الذین ثاروا عند سماعهم لها فاجتمعوا وأرسلوا نائباً عنهم لمقابلة المولی تعالی وتقدیم شکوی ضد البشر الذین یحاولون الانتماء لهم، مبدین رفضهم لتلک المحاولة... وقد استطاع ذلک النائب أن یقابل الله تعالی، فساق بین یدیه خطبة طویلة عن أعمال البشر السیئة وعلاقاتهم الخسیسة وصفاتهم المنحطة... وهذه الخطبة المسهبة لم تخدم هدف القصة العام، بل أضعفت روحها الفنیة، ولکن الشاعر جاء بها تعبیراً عن نفسه ومرارته من البشر وأخلاقهم، وتألمه من أبناء قومه الذین أنهکتهم الفروق الطائفیة والمذهبیة، وساقتهم المطامع والأهواء علی حساب کرامتهم وعزتهم وعلی حساب الوطن وکرامته، کقوله (علی لسان ذلک النائب واصفاً القرود

إياها بالبشر).

لاتعرف الدين فی غير الإخاء ولا تجنی على الخلق باسم الله والدين
لا للبطـارق تعنـو فی سياسـتها ولاتجـوع لإشـباع المطاريـن
ولاتمـزق أوطانـاً مقدسـة بغضـاً لأحمـد أو حبًّـا لمـارون
ولا تبيـع مـن الأغـراب موطنها كلا ولـو غمروهـا بالنياشـين

(فرحات، ديوان، ۱۹۳۲م: ۹۵)

وينهی تلک الأقصوصة بأن الله تعالى قد طلب من نائب القرود أن يكف عن كشف معايب البشر، مبيناً له أنه قد قطع علاقته بهم جميعاً... وطبعاً لايخفی أن هذا التخلی لكثرة ما عند البشر من مساویء وخسة.

قصة الراهبة

وأما الثالثة (الراهبة) فتدور حول فكرة الرهبنة التی تتخذها بعض الفتيات فراراً من مشكلة تكون- فی الغالب- مشكلة عاطفية... وموضوع الأقصوصة يدور حول فتاه جميلة من عائلة ثرية منعمة، هجرها حبيبها، فلجأت إلى الدير تداوی جراح الحب ولبست مسوح الراهبات ناذرة نفسها لله... وفی أحد الأيام استيقظت مع الصباح وأخذت تجمع من حديقة الدير ضمة من الزهر... وفی خلال ذلک لفتت نظرها زهرة جميلة فی أعلی الجدار، تعز على من يريد جناها، فأخذت تسائلها عن سبب بعدها وعيشها فی عزلة، وتستحسن لها العيش فی جوار الأزاهير... وعندما عادت تلک الراهبه إلی مأواها فی الليل، ونضّت ثيابها، بدت لها كنوز الجمال المختفی تحت ثياب الرهبنة، فإذا بها تستعيد تلک العبارة التی خاطبت بها الزهرة المنفردة داعية إياها إلی الدخول فی المجتمع. (بدوان قطامی، ۱۱۱۹م: ۲۴۹)

وأنـت تعيشـين فـی عزلـة فلا فی السـماء ولا فـی الثری
لمـن خلـق الله هـذا الجمـال ومـن يتنشّـق هـذا الشـذی

(فرحات، ديوان،۱۹۳۲ م: ۱۳۷؛ وديوان الربيع: ۱۷۹)

وحول شخصية (الراهبة) التی تقف حياتها على خدمة البشر، لدينا ثلاث قصائد

يعبر كل منها عن شعور الشاعر بالتعاطف مع هذه المخلوقة، شعوراً لا يستهدف إصلاح المجتمع– على غرار ما رأينا في القصائد السالفة– ولكنه مجرد شعور عاطفي رومانسي، يستطلع الشاعر من خلاله ما تنطوي عليه نفسيتها من أحاسيس، فللشاعر(إلياس فرحات) قصيدة (الراهبة) التي أطلت من الدير في ضحى يوم مشرق، وقد بدت على وجهها علائم اليأس، إنها فتاة يخلب حسنها الألباب، وإن علا وجهها شحوب ظاهر، مع أنها ماتزال في ربيع الحياة وشرخ الشباب. واخترق الشاعر حجب الغيب ليعرف علة وجودها في هذا الدير، فتراءى له أن وراءها حبيباً غدر بها وهجرها، فلم تجد دواء لصدمتها هذه سوى أن تهب نفسها لربها، وتقف حياتها على التبتل والرهبنة.

ولما طلعت شمس النهار، خرجت من الدير لتجمع ضمة من الزهر تهديها لفادي الورى، وبينما كانت تسير على مهلها تلتقط زهرة من هنا، وورده من هناك، رأت زهرة نبتت في أعلى الجدار، فأعجبها شكلها ولونها، وزاد في قيمتها أنها تعز على من يريد اقتطافها، فحرك منظرها وجدانها فقالت لها بحنان:

لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذا؟

ثمّ غامت الدنيا في عينيها فقفلت عائدة إلى غرفتها، وقد حرك قلبها لهيب الذكريات، وحينما نضت ثوبها عنها لتنام، تبين من حسنها ماكان خافياً، وسمعت هاتفاً صامتاً هو رجع الصدى يقول لها:

وأنت تعيشين في عزلة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذا؟

الصفة الأولى التي في هذه القصة، هي اعتماد الشاعر على التحليل الدقيق لنفسية هذه الراهبة، فقد أفرغ مشاعرها على الزهرة في رومانسية عميقة، فشاركتها الطبيعة في أحاسيسها، لما يوجد من التشابه بينها وبين الزهرة من حيث الجمال، والرفعة، والامتناع على من يريد اقتطافها، وهذا كله أشاع في القصة لمحات رومانسية أصيلة.

وميزة أخرى نذكرها لهذه القصة، هي أن الشاعر تمكن من الربط بين حال الراهبة في الحقل، وحالها حينما عادت إلى خدرها، ونضت ثوبها للنوم، وساعد على هذا الربط

إنهاء القصة بالبيتين الأولين من مناجاتها للزهرة. وليس فى القصة حدث ضخم يستحق الالتفات، ولكن عناية الشاعر بدت واضحة بالتصوير لاسيما لتلك الراهبة وملامحها العامة، ونفسيتها التى تنطوى على روح ثائرة مكتومة، مما جعل القصة بجملتها شائقة ممتعة. أما الراهبة الثانية فللشاعر ندرة حداد وابراهيم العريض. (مريدن، ١٩٨٤م: ٣٠٤–٣٠٥)

والحقيقة أن هذه الأقصوصة عند فرحات تعد من أروع قصصه فنيّاً، إذ تخلو من روح الخطابة والمواعظ المباشرة وتدخّل الشاعر والإسهاب المخل... إلخ من تلك العيوب التى نجدها فى قصصه الاخرى... كما تمتاز بتصوير الصراع النفسى تصويراً بديعاً عن طريق علاقه رمزية، وعن طريق إيماءات سريعة عميقة التأثير... وبالاضافة إلى هذا يتجلّى فيها الأسلوب الشعرى الجميل وروعة الأخيلة والصور التى منحت القصة بعداً فنياً رائعاً وأثراً قويا آسراً. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ٢٤٩)

قصة (كل حر فى دولة الظلم جان)

أما الرابعة فهى قصة (كل حر فى دولة الظلم جان) وهذه تقوم على موضوعين يسيران معاً، وهما: موضوع عاطفى وموضوع وطنى... والموضوع العاطفى يمثل الجانب الأكبر من القصة.

تدور حوادث هذه القصة بين شاب وفتاة يعيشان فى لبنان. تحابا منذ طفولتهما، وكبرا وكبر الحب معهما، ولكن الحائل بينهما كان اختلاف الدين، إذ هو مسيحى وهى مسلمة... وبعد أن يتحدث الشاعر بإفاضة عن آلام ذلک الصبى وتولّهه، ثمّ يتحدث عن الطبيعة وجمالها، غامزاً الأديان، كما يتحدث عن نفسه وآرائه... وفى هذا شىء من التدخل المخلّ والمضعف لروح القصة وتسلسل الأحداث.

بعد ذلک يخرج إلى الحديث عن عدوان المستعمر على سورية، وقتل والد الفتاة فى السجن لأنه لم يرض عن الظلم، واضطرار الفتاة وأمها إلى السفر إلى دمشق... ثمّ ينتقل إلى الحديث عن المآسى التى أنزلها المستعمر فى سورية، وعن الثورة وزيد وسلطان

الأطرش ووقائع الدروز مع فرنسا، معرجاً على الدين، داعياً الصبى إلى السير إلى دمشق، للقاء محبوبته... وبعد شهر يلتقى المحب بمحبوبتة فى إحدى ضواحى دمشق، ولكن ثلة من الجنود السودانيين تحيط بهما طامعة بالفتاة... وتدور معركة بين الصبى والجنود، يقتل فيها بعض الجنود، كما يقتل العاشقان... وهنا يعرض الشاعر بالفرنسيين وأكاذيبهم وادعاءاتهم.

يتحسر الشاعر، بعد ذلک، على حال هذين العاشقين مبدياً تعاطفه معهما، ويُنهى القصيدة التى وصل عدد أبياتها إلى ٢٢٢ بيتاً، عن حال قومه العرب مع الدين الذى سلطوه على كل شيء، مهاجاً الدين، داعياً إلى الحب مبيناً أثره فى النفوس والأعمال والسلوک.

والحقيقة أن بعض الوقائق الغرامية فى هذه القصة، إنّما هى نقل عما حدث مع الشاعر نفسه، وخاصة ذلک الجزء الذى ساقه على لسان الصبى متحدثاً عن حبه الأول وتعلقه بتلک المحبوبة، ملقياً التبعة على روايات جورجى زيدان التى كانا يقرآنها معاً، حيث يقول:

علمتنــى الغــرام حرفــاً فحرفــاً　　كتــب زيــدان آه مــن زيــدان
كنــت أتلــو روايــة عــن فتــاة　　مــن بنــات الملوک من غســان
...لست انسى قولى لها حين كان الـ　　حب والشــوق يجريان لســانى
إن تكونــى هنــداً وفــاء وحبــاً　　كنــت حســادک المحــب العانى

(فرحات، ديوان، ١٩٣٢م: ٢١٨؛ وديوان الربيع: ٢۶۶)

وقد تعرضنا لذلک فى حديثنا على حياة فرحات. وهذا الامر قد فات عزيزه مريدن عند دراستها لهذه القصة فتحيرت بشأنه ومما قالته: «أتراه يريد أن ينوه بروايات زيدان أم يريد أن يضفى على هذه العاطفية لوناً خياليا خالصاً.» (مريدن، ١٩٨۴م: ٣٧٧)

لو حاولنا أن نخضع هذه القصيدة للمفهوم الفنى للقصة، لوجدنا أنها تخرج على ذلک المفهوم فى أغلب جوانبها... فمع أن عنوان القصة سياسى، إلا أن محورها الأول عاطفى، كما أن فيها شيئاً كثيراً من القسر والتدخل والإيضاح والوعظ والخطابة والحكم وفقدان

التسلسل المنطقى والاعتساف فى ربط الأحداث... أى بالاختصار، لقد اتخذ الشاعر من الموضوع العاطفى الصغير وسيلة لِبَثّ آرائه وإفراغ نوازعه وأهوائه، وإلقاء مواعظه وحكمه والتعريض بالمستعمر ورجال الدين والأديان والرسل، مهتماً بهدف القصة العام دون الاهتمام بتفصيلاتها وربط الأحداث وتسلسلها المنطقى... وهذا ما أضعف بناءها الفنى وأفقدها الخيط القصصى، بل أفقدها الهدف الرئيسى الذى تهدف إليه القصة عامة، وهو اندماج القارى فى أحداثها...

كما لايخفى الأسلوب التقريرى فيها، وخلوها من الأخيلة والصور الجميلة، وبناؤها على وزن البحر الخفيف ذى النغم الهادى القريب من النثر... وكل هذا كاد يحول القصيده عنده إلى نظم، بل هى نظم فى كثير من المواضع. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ٢٥١)

قصصه القصيرة

بالإضافة إلى القصائد المتقدمة، نجد أيضاً ستّ قصائد أخرى على شكل قصص قصيرة أو أقاصيص فى ديوانه أحلام الراعى... وهى قصائد رمزية على شكل أحلام عاش فيها الشاعر مع نعاجه، وشياهه، وكلبه الغضروف. وهذه القصائد فى مجموعها – ما عدا الأولى– تدور حول الهجاء الاجتماعى والتعريض بأنباء البشر وتفضيل الكلاب والحيوانات عليهم... أما الأولى فتدور حول الخمر والحب وأثرهما فى النفوس، كما تدور حول الشباب وضرورة انتهاز تلك الفترة والتمتع بها... وهناك قصيده أخرى فيها ـ بالإضافة إلى الهجاء الاجتماعى ـ فكرة أخرى وهى فكرة العدل الإلهى، ومحاولة الثورة والتمرد على ما قبلت به المخلوقات من تسلط القوى على الضعيف، والصراع بين فكرتين حول خالق هذا الكون، أهوالله أم هى الطبيعة؟... وهذه القصيدة هى القصيدة الخامسة فى الديون وهى بعنوان؟ (إشارة استفهام).

هذه القصيدة – عامة– تبدو فيها الروح القصصية بوضوح، ولكن ما يضعف هذه الروح، هى الإطالة المُمِلّة فى بعض المواضع، والخطابة والعظات فى مواضع أخرى، وسوق أشياء لا صلة لها بموضوع القصة فى مواضع ثالثة... كما نجد فيها – أيضاً–

الحوار الطرايف الذى يضفى عليها شيئاً من المتعة، والحركة الخفيفة التى تمنحها كثيراً من الحيوية. (بدوان قطامى، ۱۱۱۹م: ۲۵۱-۲۵۲)

النتيجة

كان إلياس فرحات شديد المعارضة، عالى الهمة، كثير الجلد على الدرس والتحصيل، فعكف على المطالعة والاقتباس وأخذ يتمرن على نظم الشعر متدرجا من العامى إلى الفصيح، دون أن يتعلم الصرف والنحو والعروض، ولكنه كان يستعين بأرباب العلم ويعرض عليهم شعره فيصححون له الأخطاء اللغوية. وكما كان العناد أبرز صفاته فعاند الشعر حتى امتلكه وعاند الحياة والرزق رغم أنه كان يهرب منه. مميزات الياس فرحات الأدبية والشخصية بالايجاز، هى:

التأمل فى الأدب الكلاسيكى، والمبادرة فى خلق قوة التعبير الأدبى، والنظر فى أعمال الشعراء، وعدم الانتباه إلى القواعد المشتركة والشعبية فى الأدب العربى، الهروب من بعض قواعد العروض، والانتباه إلى المعنى والابتكار فى الشعر العربى فى خلق مركبات جديدة، استقلال الفكر، استعمال العواطف البشرية فى الشعر، العناية بالحياة الاجتماعية والسياسية للعرب، الاحاطة بالعلوم القرآنية والأحاديث، العناية للعادات التقليدية فى الحياة العربية، الاهتمام بالوحدة الموضوعية فى القصيدة، فكرة حكيمة ونبيلة.

المصادر والمراجع

بدوان قطامى، سمير. ۱۱۱۹م. *إلياس فرحات شاعر العرب فى المهجر*. القاهرة: دار المعارف بمصر.

العودات، يعقوب. ۱۹۵۶م. *الناطقون بالضّاد فى الأمريكا الجنوبية*. المجلّد الأول. بيروت: دار ريحانى.

الفاخورى، حنا. ۱۳۸۰م. *تاريخ ادبيات عربى*. مشهد: نشر توس.

فرحات، إلياس.

- *أحلام الراعى*. ۱۹۶۲م. الطبعة الثانية. بيروت: دار الملايين.
- *ديوان فرحات*. ۱۹۳۲م. سان باولو.

- *الصيف*. ١٩٥٤م. البرازيل.
- *الرباعيات*. ١٩٥٤م. البرازيل.
- *قال الراوى*. ١٩٦٥م. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد.
- *مطلع الشتاء*. ١٩٦٧م. القاهرة: مكتبة القاهرة.

فرّوخ، عمر. ١٩٦٠م. *أبوالعلاء المعرى الشاعر الحكيم* بيروت: دار المشرق.

المتنبى، أبوالطيب. ١٨٩٨م. *ديوان*. مصر: طبعة هندية.

مريدن، عزيزة. ١٩٨٤م. *القصة الشعرية فى العصر الحديث*. دمشق: دار الفكر.

المعرى، أبوالعلاء. ١٩٦١م. *اللزوميات*. الجزء الثانى. بيروت: دار صادر.

نجم، محمد يوسف. ١٩٦٣م. *فن القصة*. بيروت: دار الثقافة.